اتجاهات الأنا عند الشاعر الفاطمي (358هـ - 567هـ) مصر وبلاد الشام

الباحثة: م. م. فاطمة محسن هبر

إشراف: أ. د. محمد حسين عبد الله المهداوي.

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية /قسم العلوم النفسية والتربوية

fatima.mohsen@s.uokerbala.edu.iq

07723623235

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن اتجاهات الأنا عند الشاعر الفاطمي ، والتعبير عنها نفسياً من خلال خصائصها الإنسانية والعاطفية المنبعثة من تجاربها مع واقعها ، والتي تتلون مع تجربتها الشعرية ؛ لذا فإنّ ما يصدر عنها هو خلاصة لرؤيتها الذاتية الشعرية النابعة من تجاربها بغض النظر عن كونها تجربة حقيقية أم خيالية ، وقد اقتضت هذه الدراسة الذاتية عبر مبحثين؛ الأول الأنا الفردية ، والثاني : الجمعية (النحن) ، وكانت الدراسة النفسية للأنا والبحث في أعماق تجاربها العاطفية والاجتماعية هي الوعاء الذي جسد توجهاتها الشعرية أمام الآخر ، واظهار سلوكياتها من قوة وضعف ، وفرح وحزن لتؤكد بذلك قوة تأثير الآخر في تجاربها ، وإثباتاً لوجودها أمامه ، لكون العلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر .

Abstract:

This study aims to explore the self-perceptions of the Fatimid poet, expressing them psychologically through the human and emotional characteristics derived from their experiences with reality. These traits are intricately woven with their poetic journey, resulting in a poetic self-view that transcends the distinction between real and imaginary experiences. The self-exploration in this study is divided into two aspects: the individual self and the collective self (the collective "we"). The psychological study of the self delves into the depths of emotional and social experiences, serving as the vessel that embodies the poet's poetic inclinations in the face of others. It reveals the poet's behaviors of strength and weakness, joy and sorrow, affirming the significant impact of others on their experiences, As the relationship between them being a relationship of influence and impact.

الكلمات المفتاحية : اتجاهات . الأنا ، الفردية ، ال(نحن) ، الشعر الفاطمي .

Keywords: Orientations, Self, Individual, Collective (We), Fatimid Poetry .

المقدمة :

الـــــ (أنا) في اللغة : يتفق أصـحاب المعاجم مع ما كتبه النحاة عن لفظة ال (أنا) وهي ضـمير منفصـل يعبر عن المتكلم المفرد معظماً نفسه([1])، فالدلالة التي اشـار إليها النحاة تدل على الانفصـال عن ذات الآخرين دون شك ، وتواجدها داخل الخطاب أو النص يدل على معناها ويميزها عن غيرها ، أما في الاصطلاح فيعرفها جبور عبد النور: " شعور بالوجود الذاتي المستمر والمتطور بالاتصـال مع العالم الخارجي، والاختبارات والتثقف ثم التأمل والاستبطان ، وهذه ال(أنا) هو مركز البواعث والأعمال التي تؤقلم الإنسان في محيطه وتحقق رغباته ، وتحل النزاعات المتولدة التي تعارض رغباته ، أما فنيا فيعرفه: شـعور يبرز الذات بشـكل طاغٍ بحيث ينشط الفنان ضمن دائرة لا تتعدى حدود شخصيته ، مشيحاً بوجهه عن أمالي البيئة التي يعيش فيها ، أو متخذاً منها اطاراً مجمِّلاً أو مشوهاً لكيانه " [(2)] .

فهي تشكل البُعد الذاتي للمتكلم ، حيث تُحدد مواقفه سواءً كانت إيجابية أم سلبية، قوية أم ضـعيفة تتعدد اتجاهاتها بتنوع ميوله تجاه ذاته والآخر، وعند استعراض الشعر العربي في حقبة الدولة الفاطمية في مصر وبلاد الشـام، نرى تمثيلًا واسـعًا للأنا ، فهي تعّبر عن مشـاعر الفرد وترسـم صـورة لوجوده، كما تظهر الأنا الجماعية التي تعبّر عن ارتباط الفرد بالأهل والمجتمع بوجهٍ عام، مما يؤدي إلى تفكيك الذات وتكاملها، فيظهر الشـــاعر الأنا الجماعية بتوظيفه لصيغة الـ(نحن)، حيث يعبر عن هوية المجموعة، سواء كانت دولة، أم قبيلة ، أو أسرة، على مستويات متعددة، بما في ذلك الشخصية والثقافية والاجتماعية والسياسية والأدبية .

وهذا ينطلق من وجهة نظر فرديّة من دون ملاحظة أيّة وجهة نظر أخرى أو رأي خارج الذات، ويكون هذا سعيا واضحا لتأكيد صحة مقولات الذات[(3)] ، فيكون هذا التمظهر دليلا على تفاعل الذات وتَمكنِها من تطوير قدراتها وتحقيق انسجامها النفسي، إذ تدفع الأنا لاكتشاف نفسها في مرآة الغيرية والاختلاف[(4)] ، وعلى هذا فإن الأنا تعبر حيناً عن كوامنها الذاتية وما تحمله من مشاعر وأفكار، وميزات، وحيناً آخر تعبر عمَّا تحمله الفئة التي تنتمي إليها من مناقب ومساوئ وغيرها ، فهي على وفق هذا تتجه اتجاهين رئيسين :

المبحث الأول : الاتجاه الفردي (الأنا) .

المبحث الثاني : الاتجاه الجمعي (النحن) .

أولاً : الاتجاه الفردي (الأنا) :

يتناول هذا الاتجاه الجانب الشخصي للشاعر، مرتبطًا بتجربته الشعرية والانفعالات والأحاسيس التي تندرج تحت مظلة الذات . تظهر خصوصيات الذات الشاعرة في تلك التجربة الموضوعية والثقافية والمعرفية، إذ تعكس حال المجتمع الذي يعيش فيه والعوامل التي تشكل مصدرَ فخر أو انتقاص لذاته ومن ثم ، تعدُّ قصائدها وعاءً يبرز تكوينها بأشكال وأنماط متعددة ، فهي: " صورة لشخصية ناظمها، ومرآة أيضاً تتراءى فيها روحه من أهواء ونزعات وتأملات "[5]، فالشخصية معقدة وتشمل هويات وشخصيات فرعية تدعى أحياناً (الأنوات المتغيرة) التي قد تؤدي إلى الصّراع ؛ فقد تكون لها أهداف مختلفة في آن واحد، وقد تتناوب في الظهور بسبب ظروف الحياة[6]، فنجد الشاعر أحياناً يتغنّى بما يحمله من مقومات من نسبٍ وحسبٍ وكرمٍ وشجاعة، وغيرها، وهو ما يدعو بالأنا إلى أن تبرز لديه بشكل متعالٍ فيحتفي بها أيّما احتفاء في كلِّ موقفٍ، وفي موضع آخر نجدها تقلل من شأنها لتبدأ في موضع قد يكون في مرتبة دنيا من المجتمع، وهي في كلِّ هذا تحاور الآخر بأشكاله كلها، وفي كل مكانٍ وزمان، وبحسب ما يستدعيه الموقف، فيكون الآخر" متعلقاً بالذات تعلقاً لا فكاك منه شأنه في ذلك ارتباط الحياة بالموت"[7]، وقد أثبت (دريدا) أن الآخر هو المصدر الحقيقي في الخطاب؛ لأن " الأنا لا تستطيع خلق كينونة خارجية ضمن نفسها دون أن تصطدم بالآخر"[8]، فكل ما يظهر من الأنا نابعٌ من نتيجة تفاعلها مع البيئة المحيطة بها، وتأثير هذا التفاعل يظهر في مظاهر حياتها الفردية وهويتها وانتمائها الاجتماعي، ويمكننا فهم طبيعة الأنا في الخطاب الفاطمي كمرآة لتعبيرها عن تلك التفاعلات، وفي هذه الحالة يستعين الشاعر بالتحقيق في جوهر المقومات الفنية ليظهر ذاته بشكل متواصل أمام الآخر. ويبني خطابه وحواره بصورة مستمرة، إذ تكون ذاته محورًا أساسيًا يركز عليه النص الابداعي ، فيُظهر الشاعر صورة شاملة لذاته، تكون لغته تعبيرًا عنها، يكون لسان حال لذاته، وذلك برسم صورة مكتملة تبرز أناه الناطقة، فيكون الشعر الوسيلة التي يعتمد عليها للتعبير عن ميزاته وسجاياه؛ سعيًا إلى إبراز ذاته بغرض تحقيق الاشتهار الذي يسعى إليه، مثلما نجده عند تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: (الخفيف)

أنـا مِـنْ رِقةِ الهـوى والهَـواءِ ومـنَ النـُّورِ أُلـقِّـتْ أَجـزائِي
تَبْذُل الخُرَّد الحِسَانُ لِي الأو جـُهَ دُونَ الأُمَـهـات والآبَـاءِ
وإذا غَـنـَّتْ القيَـانُ فـإنِّـي ستْرُ ألحَـاظِهـا على الـنُّـدمَـاءِ
فكأني والشَّعرَ والأَوجهَ البِيـ ـضَ بدورٌ في ظُلـمَـةٍ في سَمـاءِ
جلَّ قدري عن الغِلالَةِ والتِّكّـ ـة والـقُـمـصِ والـقَبـا والـرِّداءِ[9]

هذه الأبيات تعبّر عن تجربة ذاتية تحاكي روح الحب والجمال، مع إظهار الشاعر لتأثيرات الهوى والنور على وجوده ، والأفكار المُوضحة في الأبيات هي: (رقة الهوى والهواء والنور): يُرَسِّخ الشاعر في أول بيتين فكرة

أنه نشأ وتكوَّن بوصفهِ جزءًا من جمال الحب وخفة الجو، وأن جزءًا منه هو نتاج للنور الذي أُلّفت أجزاؤه منه، والفكرة الأخرى: (تضحية الحسّان بوجه الأم والأب) : يُظهِر الشاعر تضحيات الحسّان (الخرد الحسي) له، حيث يبذل جهدًا وتفانيًا دون اللجوء إلى الأمهات والآباء، وأيضا (القيان وألحاظها): يُشير الشاعر إلى غناء القيان، ويبرز أن ألحاظها تظل موجهة نحو الندم، مما يمكّن القارئ من التأمل في تناقض بين الجمال الظاهر والألم الداخلي، أما الفكرة الأخرى : (الشاعر والشعر والأوجه): يُعِدُّ الشاعر نفسه والشعر جزءًا من المظهر الجمالي، مُقابلًا الظلام بدورٍ يلعبه الشعر والوجوه البيضاء، وفكرة :(جلّ قدره عن الملابس): إذ يُعبّر الشاعر عن انفصاله عن العناصر الأرضية والمادية عن طريق التنازع عن الغلالة والتكة والقمص والقباء والرداء، مما يُظهِر رغبته في التحلي بالروحانية والبساطة، كما تتجلى في هذه الأبيات استخدام الشاعر للصور والرموز للتعبير عن تجربته الشخصية وتفاعله مع جمال الحب والفن والروحانية وهذا بحدِّ ذاته إفصاح عن أنا قوية وشاخصة بصفاتها ونضجها ؛ لأنه كشّفَ عن جلبابها بوصفهِ لها وما يعتريها من أفكارٍ وانفعالات تُخلّد هذه الأنا ، ويبدو أنّ تميمًا قد استوحى فكرة هذا النمط من اعتزازهِ بنفسهِ، واغتراره (بأناه) مما أملته العقيدة الإسماعيلية التي افترضت خلق الخليفة الفاطمي من(نور)[10]، ومحاولة لظهور شخصه مثل تميم هو ليس بحاجة لها؛ لما يمتلكه من منزلة اجتماعية ، وأدبية لكن الواقع الذي فُرض عليه في سلب الخلافة منه وإيكالها إلى أخيه الأصغر غيّر من مشاعره ، فبعد أن كان يعيش في واقع صار يعيش في أحلام لا تتحقق حتى تحولت إلى عقدة نفسية لزمته طوال حياته تمثلت في حبّ الظهور والتفاخر على الآخر وإقصائهِ إلى أبعد حدٍ، وكأنه يشفي معاناته بهذا، حتى نجده في موضع آخر، يقول : (المتقارب)

ولا تَطلبـُوا رُتْـبـتِـي إنَّـنـي مَلَأْتُ السّمَـاء بتكثِيْرهَـا؟

ولا تَفعَلُوا فِـعـلَ آبَـائِـكَـم فَتَخطُونَ خُطوَى بتَطْهِيرِهَا

وَرِثْـتُ سِيَاسـة مَهْدِيّـهَـا وحُزْتُ شَجَاعَةَ منصُورِهَا

ولمْ أنْحَرِفْ عنْ سَجَايَا المُعِزّ وقَـائِـمِهِ يَـومَ تَـقْـرِيْـرَهَا

ولمْ أَلْقِ منْ نَـاظري نَظـرَةً إلَى مَنْظَرٍ غيـرَ منْظُورِهـا[11]

يبدو أن الشاعر، في لحظة انفعال عالية، قام بإبراز ذاته، مُعلنًا أن وجوده يمتلئ بالسماء، يُعرف في كل ميدان سياسي، وشجاعة متأصلة ، والإمارة التي فُقِدَت منه لا تبتعد عنه كثيرًا ، إذ إنَّ بعض النقاد أشاروا إلى أنه كان أحد أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه، وكان شاعرًا له مكانة فقد: " كان من أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه العزيز، وكان شاعراً وله فضل "[12]، وفي هذا السياق، يظهر الشاعر وكأنه يستعرض شخصيته بشكل بارز، في مواجهة الأوضاع التي عاشها، يحاول إخفاء الحسرة والألم الذي يختزنه في ذاته بسبب ما حدث ، يقف كمبرز لشخصيته، وكأنه يضع نفسه في مقارنة مع إخوته، ليُظهِر صلاحيته لتولي الحكم والخلافة ، ويسعى للحصول على حقه الذي حُرم منه، في قياسه بينه وبين إخوته الذين قد لا يتمتعون بمميزاته وصفاته .

أما أبو الرقعمق الأنطاكي (ت 399هـ) ، فحبُّ الظهور لديهِ نابع من اتجاه مختلف عمّا نراه عند تميم ، يقول : (الهزج)

وفِـــي الآفَـــاقِ أَقْـــوَامٌ يَمِيلُونَ إِلَـــى شِـــعْرِي

ونُـــبِّـــئْتُ بِـــأَنَّ القَـــوْ مَ لا يَخْلُـونَ مِنْ ذِكْـــرِي

فَفِيـمَ التـــرْكُ للسَّـــيْـــرِ وهـلْ في ذاكَ مِـنْ عُـذرِ[13]

هذه الأبيات تتناول فكرة التفكير والتأمل في الجمال، ورغبة الشاعر في الانغماس بشعره وتأمل الآفاق، فهو يعبّر عن تأثير شعره في الآخرين الذين يميلون إليه ، وكذلك عن قوة التأثير التي يتركها في ذاكرتهم ، فيطرح سؤالاً حول التفكير والتأمل في الحياة ، ويستفسر عما إذا كان هناك عذر في التفرغ للسيّر في طريق الحياة والابتعاد عنها ، فكان ساعيا للظهور الذي تمثّل بالوصول إلى البلاط لكسب المناصب ، ونيل رضا الممدوح وكسب عطاياه، مما دعاه لأن يتجهَ بشعره الاتجاه الذي تميّز به ، وذاع صيته بين قومهِ حتى عُرف به وهو (الحمق) ، فجعل من هذا الأسلوب وسيلة لإبراز ذاته المحطمة بين أقوام لا يجد فيهم تقديرًا لهذه الذات ، فهو معروف بين قومهِ بحمقهِ ؛ لذا جاء هذا التفاخر، وبروز الذات ؛ تعويضاً عن الشعور بالنقص الذي طالما عاناه تجاه أقرانهِ من شعراء عصرهِ .

أما عمارة اليمني(ت 569هـ) ، فيفخر بمقدرتهِ الشعرية ، ومنزلتهِ المتميّزة بين قومهِ ، في قوله : (البسيط)

كأنّـني بالـلّـيَـالي وهـي هـاتـفـةٌ قدْ صُمَّ سمعُ رجال دونها وعُمي

أصـبَحـتُ بالشـعـرِ مَـلحُوظاً بمنقصةٍ ولمْ أَزلْ بَيْنَ أَهل العِـلمِ كالَعَلَمِ

والـعَصر يَعلَم أنّـي فـيــهِ جـوهـرةٌ رخيصَة السّعرِ بالغَـالي منَ القِيَمِ

ما أفْـقـر الـدَّهر مِنْ مثْلِـي وأنتَ بِمَا أَقُول أَدرى ولـكـنْ قـلَّـةُ القِسَمِ[14]

تتناول هذه الأبيات الإحساس بالإهمال والعدمية، حيث يعبر الشاعر عن تجربته بأنه أصبح غير ملحوظ في عالم الشعر وأهل العلم ، ويصف نفسه بأنه جوهرة رخيصة السعر بينما يُقدَّر غيره بشكل كبير، يعكس الشاعر حزنه على واقعه الحالي، مظهرًا انكساره واستنكاره لتجاهل الناس له وقلة تقديرهم ، فالأبيات تظهر مفارقة بين إدراك الذات الشاعرة لقيمتها الفعلية وتقدير الآخرين لها ، فيعكس الشاعر تواضعه ويُظهِر تباينًا بين قيمته الحقيقية والتقدير الذي يحصل عليه في الواقع .

وفي اتجاه آخر نجد الشاعر الفاطمي يحاول إثبات ذاته وتأكيدها ، ولعل ذلك راجع إلى كينونة الذات فقد يشعر الشاعر بالنقص، أو هناك من ينتقص من ذاته أو منافستهِ والتعالي عليه، وهذا ما نجده في قول الشاعر المهذب بن الزبير ت(561 هـ) : (الكامل)

إنّــي أمـرُؤ قَدْ قتـلتُ الـدَّهر مَعْرِفَـةً فَمَا أَبيتُ عَـلَى يَـأسٍ ولا أَمَـلِ
إنْ يَرْوِ مَاءُ الصِّبَا عُودِي فَقَدْ عَجُمَتْ منى طَرُوقُ اللّيَـالِي عُودَ مُكَتهِلِ
تَـجَاوَزت بي مَدَى الأَشْيَـاخ تَجْرِبَتِـي قِدماً ومَا جَاوَزتْ بِي سِنَّ مُقتَبَلِ
وأولُ الـعمـر خـبـرٌ مـن أواخـرِهِ وأين ضوءُ الضُّحى من ظلمةِ الأُصُلِ
دُونِـي الّــذي ظَـنَّ أنـي دُونَـهُ فَلَـهُ تَعْـاظمُ لِيَـنَـال المَـجْـدَ بالخِـيلِ
والبَدرُ تَعْظَم في الأبصَارِ صُورَتُهُ ضَرَّ مَا ظَنَّاً وتَصْغَر فِي الإفْهَامِ عن زُحَلِ[15]

هذه الأبيات تعكس روحًا قوية وفلسفة حياة إيجابية ، يتحدث الشاعر فيها عن تحدياته في الحياة وكيف قتل الدهر بالمعرفة ، مما يظهر استخدامًا مباشرًا للكلمات، يُبرز الصعوبات التي واجهها بطريقة فنية تجعلنا نتأمل في قوته الداخلية وقدرته على التغلب ، فالتشبيه بماء الصبا وطرق الليالي يظهر الجفاء والصعوبات التي واجهها في رحلته فهو يتجاوز مدى الأشياء ، وتجربته تعكس عمق فهمه وتحدياته التي تجاوزها ، وكل ذلك يُشير إلى أنَّه ما زال يحتفظ بالأمل والإصرار حتى بعد مرور الزمن وتقدم العمر، فالشاعر اعتمد على صور البدر وزحل مما أضفى على الأبيات طابعًا فلكيًا يُظهر عظمة الصورة في الأبصار وفهم الظواهر الكونية ؛ لأن الشاعر أراد تحقيق طموحه ومجده بالخيال والتصوّر، بوجهٍ عام ، تُظهر الأبيات توازنًا بين الواقعية والتفاؤل ، وتشير إلى قوة العزيمة والإرادة في مواجهة التحديات، مما يُدلل على أنا مُدركة وقوية لدى الشاعر حتى ليعتز بذاته هذا الاعتزاز.

ومن اتجاهات الأنا عند الشعراء التفاخر بما تتميّز به الأنا على الآخرين ، ولتحقيق ذلك نجد الشاعر بصفتهِ ذاتاً يحاول تجاوز (الأنا) في الواقع عبر الذات الشاعرة ، ويرى سارتر أن تأكيد حرية الذات ينبع من التعالي ونفي العبودية التي يفرضها الغير وفي الوقت ذاتهِ نفي الآخر وتحويله إلى عبد [16] ، وخير ما نلمح ذلك في قول الشريف العقيلي (ت بعد 450هـ) : (المجتث)

إذا نَمــوذَجُ شِعْرِي طرَّزتُــهُ بالـمَعَــانِـي
تَحَـيَّـرَ الـنــَّاسُ مِمَّـا فِيـــهِ مِنَ الافـتِـنـانِ
فَلَا تكُنْ تَحتَ شَكٍّ مِنْ حُسْنِهِ الـفَــتَّــانِ
فَـلَسـتُ آتِـيكَ مِـنْــهُ إِلَّا بِسِحْرِ البَـيـَانِ[17]

تظهر الأنا عند الشاعر العقيلي لتعلن عمّا تتميز به ملكتُهُ الشعرية، والنابعة من إحساسهِ بذاتهِ وثقتهِ الكبيرة بموهبتهِ في نظم الشعر، وحسن السبك، واختيار الألفاظ ، لتغدو أنموذجًا يُحتذى بجمال لفظها، ودقة معناها وتتحير أذهان الناس بهذه الموهبة الفذة التي ظهرت، ففي البيت الأخير من النص أطلق صفة البيان على كلّ ما

يأتي به من شعرهِ ،وهذا دليل على نرجسية الأنا وحبّ التفرد ، والتميّز على الآخر، وهذا يقوده إلى الشعور بالغلبة ، والتفوق على الغير بوصفه وسيلةً لإرضاء الذات [18] .

أما أحمد بن خيران الكاتب (ت 431 هـ) ، فهو يتفاخر على الآخرين بما يميّز ذاته من ملكة شعرية ، وبراعة لغوية ، وإجاده في الصياغة ، في قولهِ: (السريع)

ولِـي لِـسَـانٌ صَـارِمٌ حَـدّهُ يُدْمِي إِذا مَا شِئْتَ ولا يُدْمَى

ومنطقٌ يَنظمُ شَملَ العُلى ويَستَميـلُ العُربَ والعَجَما

ولَـو دَجـا اللّيـلُ عَلَى أهْلِـهِ فأظلموا كنتُ لهُم نجما[19]

هذه الأبيات تعكس كبرياء الشاعر قوته ، وتظهر إتقانًا في التعبير وتنظيمًا في الأفكار ، فعندما نستقرئ الأبيات نجد أنّ الشاعر يقدم صورة للُغةِ الشجب والعزم ، ففي البيت الأول تعكس المعاني قوة الشاعر وقدرته على التعبير الحاد، مع استخدام " لسانٌ صارمٌ " لتوضيح حدة كلماته وقوة تأثيرها، " يُدْمِي إِذا مَا شِئْتَ ولا يُدْمَى" يُظهر تحكم الشاعر في كلماته، إذ يمتلك القدرة على إلحاح الآخرين دون أن يتأثر بالانتقادات ،والبيت الثاني يُظهر رصانة الشاعر في استخدام اللغة، إذ يُظهر تنظيمًا عقليًا يُقنن الأفكار ويشمل مختلف الأوطان. أما البيت الثالث يُبرز استعداد الشاعر للتحدي والتصدي للصعاب ، مُظهِرًا نفسه كنجم يضيء في ظلام الليل، ومجملاً تُبين هذه الأبيات ثقة الذات الشاعرة بنفسها وفخرها بقدراتها اللغوية والفكرية ، وتعبّر عن قوة شخصيتها والاستعداد لمواجهة التحديات .

وقد يجعل الشاعر من نسبهِ وانتمائهِ الأسري والقبلي وسيلة للتفاخر على الآخرين، من ذلك قول الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : (المنسرح)

أنَا مَنْ بَشّـر المَسِيـحُ بِـهِ وقدَّمَتْ نَعتَ وَصفَهِ الرُّسلُ

مُحَمَّدٌ خَيرُ مَنْ بَدا وَهَدَى وخّيرُ مَنْ يَحْتَـفَـى ويَنتَعِـلُ

أبِي الوَصِيُّ الذِي بهِ اتَّضَحَتْ للنّاسِ طُرْقُ الرَّشَادِ والسُّبلُ

وأُمِـي البَتُـولُ ومَـنْ كـلُّ نِسَـاءِ الوَرى لَها خَـوَلُ

رَهْـطُ نبـيِّ الـهُدى وأُسـرتهِ والـخُلفاءُ الأئِمـةُ الـذُّلُـلُ[20]

يتفاخر تميم بنسبهِ وأي نسبٍ يذكره ، وحق له التفاخر بهِ مظهراً الشجاعة بتعداد مناقب أهل بيت النبوة الذين ينتمي إليهم ، وهو فخر نابع من صميم العقيدة الفاطمية الإسماعيلية التي ترى أنَّ الفاطميين هم امتدادٌ لنبوة محمد (صلى الله عليه وأله وسلم) ووارثي لإمامة وصيهِ [21]، وإيمان راسخ بها رفعاً بمنزلتهم وإقصاءً للآخر؛ لذا نرى فخرَهُ بالنسب لهُ نغمة خاصة ؛ نغمة الغرور التي طالما لمسناها في فخرهِ بوجهٍ عام ، وهذا يرجع إلى ذات الشاعر

التي اتّصفت بالإباء ومحاولة إثبات نفسها في كلِّ موقف ، ويتضح لنا ارتباط الشاعر بالقيم الدينية والأمور الأخلاقية التي عملت على تشكيل هويته .

وقد يتفاخر الشاعر بما يشيّده من مفاخر تسمو بذاتهِ، وهذا ما نجده عند الشريف العقيلي وهو يجمع عددا من مظاهر الفخر الذاتي في المقطوعة الواحدة: (الطويل)

وإنّي لأَعطِي المُسْتَمِيحَ بحَقِّهِ وأَرْعَى لَهُ إِيثَـارَه لِي بنَفْسِهِ

وأَتركَ جُودِي إنْ رَأى لَيلَ حَالِـهِ بَهيماً تَلافَاه بأَنْـوَارِ شَمسِهِ

فإنْ جَاء مِنْه الظَّن مستَوحِشاً إليـهِ نَوالِـي كَـي يَلذُّ بَأنْسِهِ

فَسَائِلْ بِيَ الآمَال تُخْبِرْك أَنّنِي فَتَى إنْ سَرَى فِي سُؤدَدٍ فَبحسّـهِ

إِذَا مَا العَطَايَا أَعْوَزَت ثَمَراتُهَا فَلا يطَّلِبْهَا النّاس مِن غَيرِ غَرسِهِ[22]

تعبر الأبيات عن روح السخاء والكرم، حيث يظهر الشاعر واثقًا من إيثاره للآخرين، ويتميز بإعطائه بلا حدود وبذله للجود من دون انتظار للمقابل ، فالشاعر في أبياته يتناول الظروف الصعبة التي قد يمر بها الإنسان، مشددًا على أهمية النية الطيبة والرغبة في مساعدة الآخرين وهذا ما يؤكده النص الشعري إذ يظهر الشاعر بوصفه شخصا طيب القلب ومستعدا لتقديم المساعدة من دون أن ينتظر الشكر ، ويعبر عن ثقته في قدرته على إيثار الآخرين ويعدُّ ذلك جزءًا من هويته وطبيعته الإنسانية، وقد يراوده القلق في حالة رؤية الآخرين يعانون، ولكنه يجد الراحة في أنه قدّم يد المساعدة لأبناء بلدته. فقد أضفى على نفسهِ مجموعة من الصفات التي يمكن له أن يتفاخر بها ، وتسمو بها ذاتهِ ، فهو الناصر للحق، والمجير للمظلوم، والجواد حين البأس، يؤثر بنفسهِ سعياً لتحقيق المعالي، وهو بعد ذلك يحق له السمو بذاتهِ ورفع شأنها بين الآخرين وهو الهدف الأسمى، وليس ذلك غريبا عليه فقد عرف عنه بأنه صاحب ذات أبيّة لم تعرف التملق والتزلف، ولم تنشغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد، وفي شعرهِ ما يدل على هذه النفس، والبعد عن التكلف والمداهنة، وحياة اجتماعية مترفة منعمة، وقد انعكس ذلك في شعره الذي ضم صوراً لحياته الباذخة المترفة ، وكان يحيا الحياة التي يريدها، فكانت مآدبه سخية ، ومجالسه عامرة [23] .

وقد يسعى الشاعر لرفع ذاته، ورسم صورة الكمال لها تعويضاً عن عقدة النقص التي يعاني منها، فالشاعر يظهر ذاته في حالة متناقضة، وخير ما نجد ذلك عند الشاعر تميم بن المعز لدين الله : (الخفيف)

أَنَا فَردُ النُّهَى ورَبُّ المَعَالِي وحُسَامُ الكِـفَـاح يَوم الكِفَاحِ

أَنَـا مُفتَـاح قُـفْلِ كُـلِّ نَـوَالٍ يَومَ يَغْدُو النّـدَى بِلا مِفْتَاحِ

أَنَا كالجدِّ في الأُمُور إذا مَا كَانَ غَيري فِيهِنَّ مثل المُزاحِ

لا كَرَاضٍ من العُلَا بإدعـاءٍ وبِعَــرضٍ مُحـــرَّجٍ مُســتَباحِ

فَسَلِ المَجدَ عَنْ صَباحِي ولَيلِي وَمَقيلي وغدوَتِــي ورَوَاحِـي

هل يَسُرُّ الـعُـلا مَقالِـي وفعلِـي وارتيَاحي لكَسبِها واقتراحي

هَاكَها كالصَّهيل في حلبةِ الفَخـ ـرِ إذا كَـانَ غيرُها كالنُّباحِ[24]

تجسّدَ في هذه الأبيات فخر تميم بذاتهِ من دون خوف ، متحدياً كلّ الحواجز في رفع ذاتهِ ، فلا يدانيهِ أحدٌ في المنزلة، والاعتزاز بالذات، والفخر بها بعيداً ليأتي بكلّ ما يمكنه في ذلك من حسبٍ أو نسبٍ أو جاه، فقد تفرد بذاتهِ ، فاعتزازهُ بنفسهِ بات جلياً وهو أقوى من أية قيمة أخرى، فضلاً عن هذا فهو الصوت الأعلى ، ولهذا نجد صوت الأنا المتعالية واضحا ، فهو بعد ما أسبغ على نفسه صفات التعالي والقوة يقول: (لا كراضٍ من العُلا بادعاءٍ) ؛ أي إن المجد والمعالي صفاتٌ متأصلة يستشعرها في ذاتهِ ولم تكن ادّعاء ، وهذا بحدِ ذاتهِ أقوى تعبير عن الشعور بقوة الذات وتفخيمها لها أمام الآخر، وما يمكن تفسيره هنا أن تميماً وصل إلى أقوى لحظات الضعف، وقمة الانكسار فما منه إلّا أن يواجه تلك المشاعر بمشاعر معارضة تثبت الحقيقة التي سلبت منه، ليثبت مظلوميته .

أما أبو الرقعمق الأنطاكي فقد جعل من حمقهِ وسيلة للتفاخر على الآخرين : (البسيط)

فَفِيكَ مَا شِئْتَ مِنْ حَمَقٍ ومِنْ هَوَسٍ قَليلُهُ لِكَثيـرِ الــحُمْقِ إِكْسِيــرُ

كَمْ رامَ إِدْراكَهُ قَـــومٌ فأَعْجَزَهُـــمْ وكَـيـْفَ يُدْرِكَ مَـا فِيهِ قَنَـاطِيــرُ

لا تَنْكـــرَنَّ حَمَـاقَــاتِي لأَن بِهَـــا لِـوَاءُ حُمقِـي فِي الآفـَاقُ مَنْشُورُ

ولَسْتُ أَبْغِـي بِهَـا خِــلاً ولا بَــدَلاً هيْهَاتَ غَيْرِي بِتَرْكِ الحُمقِ مَعذورُ

لا عَيْبَ فيَّ سِــوى إنيّ إذا طَرِبُــوا وَقدْ حَضَرْتُ يُرى في الرأَس تفْجِيرُ[25]

جعل الشاعر من حمقهِ بالشعر وسيلة للتفاخر أمام الآخرين ، لتفردهِ بهِ ، وهذا ما أكده الدكتور محمد زغلول سلام في قولهِ :" يبدو أنه راج بهِ عند معاصريه ، فهو مُلحة وسط صرامة الجدّ، وتحرر كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليهِ الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون، أو اللامعقول" [26]، فالشاعر وجدَ نفسه في المراتب الدنيا ، ولم يجد أمامه ما يمكن أن يرفعه مما هو فيه إلّا الحمق ؛ تعويضاً وإرضاءً لنفسهِ المنكسرة إثر الفقر، والتخلف الاجتماعي ؛ لذا فإن الحمق بشعرهِ نشر لواءه بين الآفاق ، فالأنا في هذه الحالة منكسرة محطمة ، ويمكن القول بأن الحمق هو بحقيقته تمرد شعري _إن صحَّ التعبير_ لأنَّ الشاعر شعرَ بالحيف فأراد أن يخلع جلباب الرضا والقبول ليرتدي جلباب التمرد الممتزج مع إظهار الأنا ؛ كي يحمي نفسه مما يلاقيه ، ولشجاعة الأنا وبسالتها دور

في رفع قيمتها أمام الآخر، حتى نجدها في بعض المواقف تضحي بكلِّ شيء حتى إقبالها على الموت من غير خشية ، وبكلِّ ثبات وعزيمة ، وهذا ما وجدناه عند أسامة بن منقذ (ت 584هـ) ، في قولهِ : (الطويل)

لخمسَ عشرَةَ نازلتُ الكُماةَ إلى أن شبتُ فيها ، وخيرُ الخيلِ ما قَرَحَا

أخُوضُها كشهاب القَذْفِ مبتسمًا طلقَ المُحيَّا ووجهُ الموتِ قد كَلَحَا

بصارِمٍ ، من رآهُ في قتَام وغًى أفْرِى بهِ الهامَ ، ظنَّ البرقَ قدْ لَمَحَا

أغدُو لنار الوغَى في الحربِ إن حَمَدتْ بالبيضِ في البيضِ والهاماتِ مُقتدحا

فسل كماةُ الوغَى عنِّي ، لتعلم كم كَربٍ كشفتُ ، وكم ضيقٍ بي انفسحَا[27]

تظهر هذه الأبيات اندماجًا بين الروح البطولية والشعور بالفخر الشخصي، فنجدُ أنَّ الشاعر يصفُ مشهد المعركة بإيحاءات قوية ومعبّرة، ويؤكد تحديه للمخاطر بابتسامته في أثناء المواجهة، كما يظهر تأثره بالموت والحياة، حيث يصف وجه الموت بأنه قد كَلَحَا الذي هو بالضد من الحياة وإن عُدَّ حياةً أخرى، كما يبرز الشاعر أيضاً تحمله للمشاق والتحديات، مع التعبير عن الألم والصعوبات التي واجهها في مسيرته البطولية هذه في الحروب والقتال، ويبرز مفهوم الأنا والفخر الذاتي حينما يتأسس ذلك المفهوم شعورا وإحساسا لدى الشاعر وهو يصف تجربته في ميدان المعركة، مع التركيز على الفخر بالفعل البطولي والشجاعة، ووظّف لذلك اللغة الشاعرية لتصوير الخيول والأحداث الحربية بشكل ملموس، مما يعزز طابع البطولة والقوة ومن ثم يقرر قوة الأنا وعنفوانها لديه.

ومن اتجاهات الشعراء في التعبير عن ذواتهم ورفع منزلتها بين الآخرين؛ ربط قيمة الأنا بقيمة الممدوح ، فبلوغ الأنا قيمتها بقيمة ممدوحها ، بل قيمة ما يحصل عليه من عطايا الممدوح المادية والمعنوية من التقرب منه ، فضلاً عن ذلك ما قد يحصل عليه من منزلة اجتماعية ، أو منصب ما ، أو ما إلى ذلك ، فكثيراً ما يلجأ الشاعر في هذه الحال إلى تفخيم لغة الإشادة بالممدوح ؛ ليرسم له صورة أنموذجية من المحاسن، والشاعر يسعى إلى تحقيق أهدافه الذاتية، وهو ما نجده عند الشاعر أبي الرقعمق: (البسيط)

لَو نِيلَ بالمَجدِ فِي العَلْيَاءِ مَنزِلَةٌ لَنَـالِ بالمَجدِ أَعْنَانَ السَّمَاواتِ

يَرمِي الخُطُوبَ برَأْيٍ يُسْتَضاء بِهِ إذَا دَجَا الرَّأيُ مِنْ أَهْلِ البَصِيرَاتِ

فَلَيْسَ تَلقَاهُ إلّا عِنْدَ عَارِفَةٍ أَو واقِفَاً فِي صُدُورِ السَّمْهَرِيّاتِ

يا مَنْ غَدَتْ أوجُهُ الأَيَّامِ مُشْرقَةً بِجُودِهِ مُسْتَهِلّاتٍ مُنِيراتِ

مَالِي بِلا سببٍ غُودرْتُ مُطَرَحاً وَقَدْ حُرِمْتُ عَطاياكَ الجَزِيلاتِ

ولِي مدائِحُ قِدْمَــاً فِيكَ سَــائِــرةٌ مُسْتَطـرِفَـاتٍ بأَلفـاظٍ طَرِيفَـاتِ[28]

تُعبر الأبيات عن تطلع الشاعر إلى العلياء والمجد، وتتناول مفهوم الرأي وأهميته في الاستنارة ، إذ يتحدى ويستعين على الخطوب برأي يستنير به عندما يغيب الرأي عن أهل البصيرة والمشورة. لذا يؤكد الشاعر على أهمية فهم الرأي عبر عارفة أو ممن يقف في صدور السمهريات ؛ أي من كان باستطاعته مجابهة الشدائد تظهر الأنا في القصيدة عبر تعبير الشاعر عن رغبته في نيل المجد وتحقيق مكانة مرموقة في الحياة ويتجلى أيضًا في تعبيره عن فهمه العميق للرأي وضرورة إلقائه بحكمة وبصيرة ، كما يعبر عن امتنانه للأيام الساطعة بفضل الله ، ويُظهر استعداده للتغني بالفضائل والجود ، وتبرز الأنا في مدائحه للآخر وفي التعبير عن قدرته على الإبداع بألفاظ طريفة ومبهجة ومُفسّرة لملامح الأنا، فالمدائح يتغنى بها للآخر ولكن في واقع الأمر هي انعكاس لأناه وصورة واثقة تنمُّ عن شخصية واثقة ومُدركة .

أما المؤيد في الدين الشيرازي نجده يقرّ بهذه الوحدة والغربة والحاجة إلى من يسند ذاته، فيقول : (المتقارب)

أسرُّ الجَوى والدّمُوعُ الجَوارِي تَنمُّ بِسرّي فَلمْ يَبقَ سِرُّ

وإنّــي أَسـرُّ وسـرّي الذي أَكَاتِمهُ النَّاسَ للنَّاسِ جَهرُ

لأنّي غَريـبٌ فُؤادِي حَريـبٌ عَليـهِ اللّيَـالِـي بِليلِ تَكُرُّ

طَريـدٌ شريـدٌ فَريـدٌ وحيـدٌ فَـقِيـدٌ لإلـفٍ وديـد يَـبـرُّ

وإنّي في محفلٍ من عداةٍ عتاة فكم منهم فيّ غمرُ

فمن ذا أُرجى ومن لي المنَجّي وكيفَ السَّبيلُ وأينَ المفرُ[29]

يرسم الشاعر لنفسه صورة مقيدة باليأس، (وحيد، فريد، حريب، طريد، فقيد) هذه الصفات التي وظفها ليبين لنا الحالة التي عليها ، يضيف لذلك السر الذي فضحه الواشي ، فهو وإن حاول كتمان تلك المشاعر فالدموع الجواري تفضحه؛ لأنه يرى أن الغربة التي ألمت بهِ هي السبب الأساسي الذي أفقده الأمان، وتسبب بكل تلك الآلام ، ومن ثمَّ لم يستطع السيطرة على ذاته ، ففاضت الدموع ، وأباح بشكواه ، وهو دليل بيّن على ضعف الأنا، بمعنى أنها أصبحت فاقدة لحريتها وفاعليتها، ما يترتب على هذا الشعور من إحساس متفاقم بالعجز واليأس، واللامعنى، واللامعيارية، والانعزال الاجتماعي والغربة النفسية التي وجدت صداها في أعماق ذاته [30] .

أما أبو الحسن التَّهامي (ت 416 هـ) فيقدم مديحه للحاكم بأمر الله ، متوسلًا به من أجل فك قيده من السجن ، في قوله : (الكامل)

حَاشَا مَن اعْتَمدَتْ عَلَيه دَولَةٌ منْ أنْ يَضِيق بِفَكّ بَعضَ عَبِيدِهَا

واللهُ أكرمَ حين أنزل حاجتي بمُسْوَّدِ الكرمَاء دونَ مَسُودِها

ولرب مُصْطَنِعٍ يدًا تقليدُهُ صَدْرَ الحسَام أَخَفَّ من تقليدِها

وأراهُ لا يرضى بفعلِ صنيعةٍ حتّى يتابعها كَفَاءَ حدودها

يا ابنَ الأئِمَةِ منْ قُرَيشٍ دَعْوَةً نَظمتْ دَعَاوِيها بِسِلْك شهُودِها

دلَّتْ عليكَ فأجزأت عن غيرها يغني اشتهار الحَال عن تحديدِها

إنْ كان أولاد الوصِي كواكباً فاعْلَم بأَنَّكَ أنتَ سَعَدُ سعُودِهَا[31]

بعد أن ضاقت به دائرة السبل وطرق كثيرًا من الأبواب، ولم يجد من يخرجه من قعر السجن، ومضى يائسًا منكسرًا ، وتاهت نفسه بحثاً عن الحلول رفع توسله إلى الخليفة الحاكم بأمر الله يطلب تعجيله بخروجهِ من السجن ، سابغاً عليه مجموعة من الصفات من وراثة الأئمة ، والسمو في المعالي ؛ ليكسب رضاه ويحقق هدفه في إغاثتهِ ، والحصول على شفاعتهِ ليخرجه من سجنهِ، فالذات تعيش في جدلية القوة والضعف أمام الآخر فالضغط المتولد من ضيق السجن ، وما أصابه من الكآبة ، والحزن ، والتوتر والخوف من المستقبل المجهول دفعه إلى الخضوع والتذلل للسلطة، لذا نجده اتخذ موقفًا إيجابيًا من السلطة متمثلًا بتقديم الولاء له عبر مديحه، وهو ما يتناقض في حقيقته مع مشاعره ومواقفه من السلطة ، والممدوح على المستوى الخاص، فالشاعر هنا يمارس ضغطًا على ذاته بدافع من الرغبة في البقاء، وكسب حريتهِ بخلاصهِ من ضيق السجن وظلمته ، ومما يعانيه من الذّل داخله ، فما صدر منه " إكراه إرادي نابع من اختيار هادف، إذ تراه صوت مغلوبٍ خاضعٍ ، فيه اعتراف بالخوف والضعف " [32] .

بناءً على ما مرَّ وجدنا الأنا الشاعرة قد حددت مسارها بناءً على علاقتها بالآخر، فمشاعرها المختلفة ، وواقعها الذي تعيش فيه مرتبط بفعل الآخر وما يصدر عنه، ففي بروز ذاته وتعزيزها، حتى في حالات ضعفها وانهيارها لا ينفك من الآخر، بمعنى أدق تصوّر أو تخيّل الأنا لما تبدو عليه في نظر الآخر، وما يحكمه عليها .

ثانياً : الـ (أنا) الجمعية الـ (نحن) :

يبرز في هذا النوع صوت الـ(نحن) الجمعية عند شعراء الدولة الفاطمية، فالشاعر يفتخر بانتمائهِ للقبيلة بتعداد مفاخر آبائهِ وأجدادهِ وسيرتهم الحميدة، وأمجادهم وبطولاتهم، والافتخار بالانتماء إلى المذهب العلوي والدولة الفاطمية، فهم يرون في ذلك شرفًا لهم، فالأنا في هذا النوع تعلو لتعبّر بصوت واحد، متمثله بصوت الشاعر، والأنا الجماعية تتمثل بمفاخر الشاعر بقومهِ وتأكيدها، إذ تنصهر الأنا الشعرية حتى تتلاشى معلنة عن أنا واحدة، كما يمكن ملاحظة اختفاء الذات؛ لأن الشاعر لا يعبر عن مكنوناته الذاتية وإنما يعبر عن المقومات الشخصية المنصهرة مع الأنا الجمعية التي ينتمي إليها كالنسب، والحسب والمكارم والشجاعة على اختلافها تحقق الأنا عبر وجودها ضمن جماعة تضمّ في عضويتها عددًا من الأشخاص يشعرون بالانتماء ، والتعاون في السعي لتحقيق أهدافهم من جهة ،ومن جهة أخرى يتعارضون مع من يناقضهم بصوت واحد تحت صيغة الـ (نحن) ، وعلى هذا

الأساس " يمتد الشاعر في انتمائه امتدادين في آن امتداداً من الذات إلى الوسط ، وامتداداً من الوسط إلى الذات، وهذان الامتدادان متعاكسان ولكنهما متلاقحان، يتزود الواحد من الآخر بمعدات الصلة وعناصر النماء، ولا يغني قيام أحدهما عن الآخر ، بينما تؤثر غلبة أحدهما على الآخر" [33] .

وأول ما يبتدئ به الشعراء العرب في إعلاء أناهم الجمعية ؛ التفاخر بالقبيلة وما تحمله من شرف النسب وما يحمله ذلك النسب من مكارم وشيم كانت ومازالت مصدراً لتغنّي الشعراء بها، ولعل ذلك يرجع إلى أنّ الإنسان العربي "يعد النسب قيمة لا يمكن للمرء أن يشرف إلّا إذا حظي بها "[34]، وقد مثل هذا الاتجاه عدد من شعراء الدولة الفاطمية على اختلاف بيئاتهم ومذاهبهم ، وفي مقدمتهم تميم الفاطمي الذي قال: (الكامل)

نَحْنُ الّذِين بِهِمْ تَسَامَت هَاشِمٌ حَتَّى حَوتْ شَرَفَ المَعَالي أجْمَعَا

رهطُ النَّبيّ وآلهُ وبنوه من الوَرى دونِ البنين ونَبتُه مُتَرَعْرِعا

والمُصْطَفَيْنَ المرتضين من الورى والمفضلِين بما حوَوْه تَسَرَّعا [35]

جعل الشاعر نفسه جزء من قومهِ الذين نالوا شرف المعالي ، فتوحدت ذاته بذواتهم ، وافتخر بها ؛ من حيث هو فردٌ من الجماعة المنتمي إليها ، يحمل ما تحمله من الصفات ، يعود عليها كلّ ما يذكر عن نفسه ، فهو هنا لا يذكر شيئاً ؛ ليعلن عبره أنه متفردٌ به بين قومه ، وإنما ليعلن أنه صورة من الجماعة ، فالغاية جماعية ؛ ذلك أنها مثلت القيم الإنسانية التي ينتمي إليها [36]، فالأنا هنا توحدت مع الـ (نحن) بدافع جماعي ارتفع فيه صوت الأنا معبرًا عن إيمانه بتلك الجماعة ، حتى نجده يؤكد قناعته بما جاء به ، قال: (البسيط)

لا ندّعِي ما ليس يَعْرِفَه الوَرى منّا إذا كَذَبَ المُفَاخرُ وادَّعى

وإذا تصنَّعَ للعُلا مُتَصَنِّع لمْ نأْتِ أفعال الجميلِ تَصَنُّعا

يجزم على تأكيد ما جاء بثقة تامة ، وكأنه يؤكد ما يتحدّث عن نفسه ، وهنا مثلت الذات الشاعرة أعلى مراتب الامتزاج مع ال(نحن) ؛لأن ما تحدّث به هو في حقيقتهِ عائد إلى فرديته ؛ كونه يمثل جزءًا منهم ، يكمل وجودهما الآخر ، وهذا ما أكد عليه في القصيدة ذاتها رداً على أعدائه في تأكيده على النسب ، قال :

نَحنُ الّذِين بِنَا الكِتَابُ مُنَزَّلٌ وبِنَا يجيبُ اللهُ دَعْوة منْ دَعَا

ولنَا النّدَى ولَنَا السّدَى ولَنَا الهُدَى ولَنَا الجَدا ولَنَا الرَّدَى يَومَ الوَغَى

لمْ تُلفَ إلّا مَاجداً أو رَاشِداً أو رَافِداً أو صَاعِدَاً أو مِصْقَعَا[37]

جمع الشاعر في هذه كلّ المفاخر التي يمكن أن يفتخر بها العربي وصبها على نسبهِ الشريف فالشاعر لم يتردد بتعداد الصفات التي تبيّن حقهم في أصالة النسب والكرم والشجاعة والتكريم بالرسالة الإلهية ولا تزال الأنا في كلّ ذلك تؤكد على روابط النسب التي تربط بينه وبين هذا النسب الشريف ليرفع من أناه الذاتية والجمعية

المتمثلة بآبائهِ وهو ما سعى إليه، وهو في هذا ليس جارياً على غير ما يستحق ، ولا مغتصباً ما ليس له ، فمكانته من البيت الفاطمي تسمح له بأن يفخر ويطيل الفخر إلى أبعد الأمد[38] ، وقد رأى تامر عارف أن السبب في تأكيده على هذا النوع من التفاخر هو:" الضرورة الملحّة ، وحسد الحاسدين، ومؤامرات الكائدين ، ومحاولة المحاولين الانتقاص من شخصيته وكرامته، ...، فهو الشاب الوسيم المتواضع يهبط إلى مجال التفاخر، وتعداد المآثر والترفع عن أقرانه ، فروح تميم فوق مستوى الحقد ، وأبعد ما تكون عن الاعتزاز بالنفس ، والاعتداد على الآخرين "[39]، وذلك يعني أن الشاعر في فخرهِ هذا حقيقي لا مبالغة فيه لما يمتلكه من منزلة في الأسرة الفاطمية ، كما تلحظ تكرار لفظ (نحن) في مطلع البيتين (الأول والثاني) ما يؤكد بروز هذه الأنا في هذا النص ، فقد سيطر صوت الـ (أنا) الجمعية على النص سيطرة تامة مع وجود الذات الفردية التي كان المجال مفتوحًا أمامها لكن ؛ بتملك تلك المآثر لـ(نحن) جعل صوتها يعلو على صوت الذات ؛ لذا وجدناه يسرف بالتغني بما تحمله من صفات ، وهذا يدل على قوة منزلة آبائه وأجداده في نفس الشاعر . وذات الانتماء تحمله نفس الملك الصّالح طلائع بن رُزيّك : (البسيط)

أولادُ رُزيّك ـــ لا فَخْرَ كفَخْرِهِـــمُ حَازُوا المَفاخِر في الدُنيا ، وهمْ نطفُ

وكَمْ أرادَ الـــوَرى احْصَـــاء فضْلِهمُ فِي المَكْرُمات فَما اسْطاعُوا ولا عَرِفُوا

لـكِنَهم أخــذُوا مـــا تَسْتَقلُّ بِـــه أفهَامَهُم ، وإلى حيثُ انْتَهـوا وقَفـوا

تَدَنى الغِنَى منْ يدَيَ ربّ المنَى فلنا بِه المطِـيْ إلــى أوطـــانِهم تجفُ

في غَيْرنا تَخْجَلُ الآمالُ إنْ قَصَدتْ وما يَخيـبُ رَجـَاءُ عِنْدنـا يَقِفُ [40]

إن الانتماء الروحي الذي يحمله الشاعر تجاه قومه يدفع به إلى الالتزام بكلّ ما يصدر عنهم ، فقدم لنا صورة تجتمع فيها الخصال الحميدة المتوارثة عند العرب فالشاعر يرى أن قومهِ منبت المجد وهم قد ورثوه عن آبائهم ، وهذا ما جعل الذات الجمعية تشعر بنوع من الاعتزاز بهذا المجد الموروث والنسب المتفرد [41] ، ولم يكن هذا السعي بالتمجيد من (الأنا) إلاّ من أجل تحقيق مآربها وتثبيت المنزلة الأسمى في الدولة والمجتمع الفاطمي، فالأنا وإن كانت في منزلة كريمة في الدولة إلا إنها تسعى لتحقيق ما هو أسمى من ذلك وهو ما نجده في البيتين الأخيرين إذ إن الشاعر يرى أن الآمال عند الآخر يمكن لها أن تتوقف وتخفف ومن ثمَّ تضمحل إلّا عند الجماعة المنتمي إليها فلا نهاية لها، فالأنا الشعرية هنا تحرص على إظهار الجوانب النفسية التي تنساق ضمن تجربته مع الأنا الجمعية مشخصة تلك القوة النفسية الرابطة بينها وبينه عبر ما قدمته لها من اعتزاز.

وبما إنَّ نشأة الإنسان العربي القديم كانت مصاحبة للحروب وظلال السيوف من أجل العيش بحرية وكرامة، تنطلق الأنا الشاعرة في النمط من الشعر من إيمانها بالواجب القيمي الأخلاقي تجاه الجماعة التي ينتمي إليها، والتي تحتدم عليها البروز، وتقديم البطولات والتضحيات الممكنة، ومن ثم أصبحت غاية للتفاخر تظهر عبرها

(الأنا) شجاعته وبسالته ورفع من مكانة القبيلة والدولة التي ينتمي إليها[42]، لذا نجد أنا الشاعر (نحن) تعبّر بحماس مصورة العاطفة القوية، والانفعال المندفع تجاه الجبهة التي ينتمي إليها، وقد مثل هذا الاتجاه عدد من شعراء الدولة الفاطمية ،وهذا ما نجده عند الشريف العقيلي وهو يفتخر بقومهِ فجعل رايتهم في الشجاعة والانتصار في مواقف الشدة ، مفتخرًا بقوتهم تجاه الآخر ، في قوله : (المجتث)

إنَّا لقومٌ إذا دَعَا بِـهِمُ أَسِيرُ خَطْبٍ أَجَابَهُ الفَرَجُ

ذَوُو عُلاً ما بِسَهْم رأيَهـمُ طَيْشٌ ولا فِي قَناتِهِ عِوَجُ

يَجْلُو الدُّجَى عَنْهُم وجُوهـمُ فَهْيَ لَهُم حَيْثُما سَرَوْا سُرُجُ[43]

دمج الشاعر صوتَهُ مع صوت الأنا الجمعية ليرسم لنا صوره نموذجية تحمل افتخاره ببسالة قومهِ ، وإغاثتهم للملهوف وقت الشدّة ، عندما تسمو معاليهم ، وإذا جدّ جَدهم في ساحات الوغى فهم لا يعرفون ضعفاً ، أو عوجًا في قناتهم ، وإما في الرأي والحكمة فآراؤهم منطق وحكمة ، وبوجودهم تشرق الأرض معلنة عن سنا وجوههم ، الذي علّا من شأنهم فعرَف فضلهم القاصي والداني، عارضاً بذلك صورة الأنا التي تبرز ما استقر في أعماق الذات من السمو والرفعة على الآخرين ، مبيّناً بذلك أنه فرع قوي يحمل ما تحملهُ شجرة قومهِ من الفضائل ، وهذا الأمر قد انغرس فيه حتى أصبح مقوّمًا من مقومات شخصيتهِ بما يستشعرهُ من إمكانات تكمن في طبيعة تكوينهِ التي سببت له اعتدادًا وثقة بالنفس، قادرةً على المشاركة في المحافظة على ميزات قومه ورفعها في كل زمان ومكان[44] . ومن ذلك ما نجده يتفاخر ببسالة قومهِ على الرغم من الخلافات التي بينه وبينهم : (الطويل)

بنو أبي ، وبنـو عمّي ، دمِي دَمُهُم وإن أروني مُناواةً وشَنْآنَا

كانُوا جناحي فحصّته الخُطُبِ وإخواني واني فَلَمْ تُبقِ لي الأيّام إخوَانَا

كـانُوا سيُوفِي إذا نَازلتُ حَادِثَةً وجُنّتي حينَ ألقى الخَطْبَ عُريَانَا

بِهم أصُول على الأَمْرِ المَهُولِ إذا عَرَا وألقى عَبُوسَ الدَّهرِ جَذلانَا[45]

يضع الشاعر المنزلة العالية لقومهِ، فوصفهم بالجناح الذي يحميه ، والسيوف التي يحارب بها، والجنة التي يجد فيها راحته وقت تضيق بهِ الخطب، ولم تحمل نفسه عليهم بما يدعو للفرقة بينهم على الرغم من الخلافات، وهذا يدل على عظمة النفس التي يحملها، فلم يسمح لأناه الفردية بالتمرد ورفع صوتها على صوت الجماعة .

نستخلص مما تقدم امتزاج ذات الشاعر بذات الجماعة المنتمي إليها حتى مثلتها أشد تمثيل في كلّ اتجاهاتها من النسب، والقيم الخلقية والاجتماعية والشجاعة ، فقد أجاد الشاعر بتمثيل الطبقة التي تدين لها نفسه بالولاء الروحي والقيمي على حدٍ سواء، فقد أصبح الوسيلة لرفع راية الجماعة وجعلها مثالًا للقيم، ومنبعًا للقوة ما جعلها محطاً للأنظار .

يمكن لنا أن نستخلص مما سبق أن الأنا عند الشاعر الفاطمي عبر رحلتها في البحث عن وجودها في كلا الاتجاهين؛ الفردي والجمعي قد أثبتت وجودها وحققت توازنها بأساليب تتناسب مع بيئتها ومقومات عصرها، والتعبير عنها فنيًا خلال خصائصها الإنسانية والوجدانية التي تتناسب مع التجربة الذاتية للشاعر، فكلّ ما صدر عنها هو نتاج لرؤية الشاعر المنبعثة من تعامله الواقعي ومع الآخر، كما أنها في تعبيرها لم تخرج عن الإطار الشعري المتوارث في بناء القصيدة، ولغتها الشعرية البعيدة عن التكلف ليسمح لها بإيصال تجربتها إلى المتلقي، ومشاركته مشاعرها وبذلك فإنها أخذت حقها الطبيعي في الوجود وحقها الكافي في التعبير لإثبات نفسها كما وجدنا أنها كانت عادلة في رفع صوت الجماعة التي تنتمي إليها في مواضع مختلفة، ولم تتضخم ويعلو صوتها على صوت الـ(نحن)، يدفعها في ذلك انتمائها الروحي والخلقي لأن تكون لسان حال الجماعة المساند لا المعاند أو المتعالي .

الخاتمة :

بعد الاطلاع على اتجاهات الأنا عند الشاعر الفاطمي تبيّن أمور عدّة منها :

ـ إنّ الشاعر الفاطمي عبر عن تجاربه النابعة من شعوره لتأكيد ذاته أمام الآخر بأساليب تتناسب مع واقعه ، والمجتمع الذي ينتمي إليه .

ـ لقد غلب على نصوص الشعراء في التعبير عن تجاربهم رؤياهم الخاصة التي تتناسب مع تجاربه مع الآخر .

ـ إن الذات الشاعرة للشاعر الفاطمي في كلا الاتجاهين لم تستطيع الاستقلال عن الآخر، فهو المؤثر الأول في سلوكياتها والتعبير عن تجاربها .

ـ في الأنا الجمعية تنصهر الأنا الشاعرة في روح الجماعة لكون أنا واحدة معبر عنها بصيغة ال(نحن) الجمعية ، فالتعبير عن تجربتها متوحد مع تجربة الجماعة التي ينتمي إليها .

ـ لم تخرج الذات الشاعرة في تعبيرها عن أناها في كلا الاتجاهين عن الموروث الشعري ، وعن غرض الفخر الذاتي والجماعي ؛ إلاّ إنه يؤكد على اثبات ذاته عبر التعبير عن تجاربه ، وصدق عاطفته .

الهوامش :

([1]) ينظر : معاني النحو : ج1، 43 . 44 .

([2]) المعجم الأدبي جبور عبد النور : 36 .

([3]) ينظر: المركزيّة الاسلاميّة ـ صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى: 7، والأنا والآخر في شعر الوزراء في العصر العباسي (132ـ 447 هـ) ، (رسالة ماجستير) ، ص: 22 .

([4]) ينظر : الأنا والآخر في أدب الرحلة ـ دراسة نقدية مقارنة : (أطروحة دكتوراة) ، ص: 65 .

([5]) ينظر : مواقف في الأدب والنقد : 117.

([6]) ينظر : الأنا الذاتية والواقعية : 107 .

([7]) دليل الناقد الأدبي : 22.

([8]) م. ن : 23 .

([9]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 28 .

([10]) وينظر : مجموعة الوثائق الفاطمية : 24 .

([11]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 166 ـ 167 .

([12]) حسن المحاضرة :1 / 560 .

([13]) ديوان أبي الرقعمق : 22 .

([14]) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 354 ـ 355 .

([15]) الشاعر الحسن المهذب وشعره جمع ودراسة ، (بحث) ، ص : 448 ـ 449.

([16]) ينظر : الأنا والآخر والجماعة في فلسفة سارتر ومسرحهِ : 12 .

([17]) ديوان الشريف العقيلي : 285 .

([18]) ينظر : دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره : 5 .

([19]) معجم الأدباء :1 / 381 ، 382 ، 383 ، 384 ، وينظر: الوافي بالوفيات : 7 / 154 .

([20]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 331 .

([21]) ينظر : حركة الشعر العربي في مصر الفاطمية : 51 .

([22]) ديوان الشريف العقيلي : 187 .

([23]) ينظر : المغرب في حلى المغرب : 249 ، الاخوانيات في شعر الشريف العقيلي (القرن الرابع ـ الخامس الهجري) ، (بحث) ، ص : 180 .

([24]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 93 .

([25]) ديوان أبي الرَّقعمق الإنطاكي : 20 .

([26]) الأدب في العصر الفاطمي : 135 .

([27]) ديوان أسامة بن منقذ : 259 ، وينظر : 209 ، 219 . 258 ، 261 ، 262 ، 263 .

([28]) ديوان أبي الرقعمق الأنطاكي : 55 ـ 56 .

([29]) م . ن : 308 ـ 309 .

([30]) ينظر : التحليل التفاعلي (نحو نظرية حول الإنسان) : 129 ـ 130 .

([31]) ديوان أبي الحسن التَّهامي : 219 ـ 221 .

([32]) جدلية الذات الآخر في شعر السجون (رسالة ماجستير) : 42 .

([33]) نقد الشعر في المنظور النفسي : 173 .

([34]) فتنة المتخيل : 302 .

([35]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 269 .

([36]) الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية ، (بحث) ، ص : 115.

([37]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : 269 ـ 276 .

([38]) مصر الشاعرة في العصر الفاطمي : 71 .

([39]) تميم الفاطمي : 112 .

([40]) ديوان طلائع بن رُزَيّك الملك الصالح : 102 .

([41]) ينظر : الأدب الجاهلي : قضايا وفنون ونصوص : 82 .

([42]) ينظر : الذات المفتخرة في جمهرة أشعار العرب (بحث) ، ص : 39 .

([43]) ديوان الشريف العقيلي : 93.

([44]) ينظر : الأنا في شعر الشريف العقيلي (بحث) : 199 .

([45]) ديوان أسامة بن منقذ : 359 .

قائمة المصادر والمراجع :

- الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، حسني عبد الجليل ، ط1 ، مؤسسة المختار، 2001م .
- الأدب في العصر الفاطمي (الشعر والشعراء) ، د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، مصر، د . ت .
- الأنا الواقعية والذاتية ، ديفيدر . هاوكينز ، ترجمة : حسين محمد ، ط1 ، دار الخيال ، 2017م .
- الأنا والآخر والجماعة ـ دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه ، ط1، سعاد حرب ، دار المنتخب العربي ، بيروت ـ لبنان ، 1994م .
- التحليل التفاعلي نحو نظرية حول الإنسان ، د. الشيخ محمد الشيخ ، دار الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2001م .
- تميم الفاطمي ابن الإمام المعز لدين الله الفاطمي شاعر الحب و العاطفة و الجمال ، د. عارف تامر ، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر ، بيروت ، 1982م .
- حركة الشعر العربي في مصر الفاطمية ، د . محمد حسين المهداوي ، ط ، دار الكتب ، العراق، كربلاء ، 2017م .

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت911هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربيّة ، مصر، 1387هـ-1967م .
- دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره : عبد علي الحسماني ، عبد الخالق نجم ، دار البيداء للنشر الألكتروني ، بيروت ، 2013م .
- دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي ، سعد البازعي ، ط1 ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، (د. ت) .
- ديوان أبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت416هـ) ، تحقيق : د. محمد بن عبد الرحمن ، مكتبة المعارف ، السعودية ، 1982م .
- ديوان أبي الرَّقعمق أبي حامد ؛ أحمد بن محمد الإنطاكي (ت 399هـ) ، جمع وتحقيق ودراسة ، أ. د. محمد حسين عبد الله المهداوي، طبعة مزيدة ومنقحة، دار الفرات للثقافة والإعلام ، بابل ـ العراق.
- ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : د. أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، ط2، عالم الكتب ، بيروت ، 1983م .
- ديوان الشريف العقيلي (ت حوالي 450هـ) ، تحقيق : د. زكي المحاسني ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د . ت .
- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (ت374هـ) ، تحقيق : محمد حسن الأعظمي ، ط1 ، دار المنتظر ، بيروت ـ لبنان ، 1996م .
- ديوان طلائع بن رزيك (ت556هـ) ، جمع وتبويب : محمد هادي الأميني ، ط1، منشورات المكتبة الأهلية ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، 1964م .
- فتنة المتخيل ، الكتابة ونداء الأقاصي ، محمد لطفي اليوسفي ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2002م .
- مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الخلافة ، وولاية العهد ، والوزارة ، جمعها وحققها: د. جمال الدين الشيّال، ط1، مكتبة الثقافة الدينيّة ، القاهرة ، 2002م.
- المركزيّة الاسلاميّة ، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، د. عبد الله ابراهيم ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2001م .
- مصر الشاعرة في العصر الفاطمي ، محمد عبد الغني حسن ،الهيئة المصريّة للكتاب ، القاهرة ، 1983م .
- معاني النحو: الدكتور فاضل صالح السامرائي ، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، 2000م .

- معجم الأدباء ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت626هـ) ، ط3 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، 1980م .
- المعـــجم الأدبي ، جبّور عبد النـــور، ط2، دار العلـــم للملايين ، بـــيروت ، 1984م .
- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد المغربي (ت 685هـ) ، تحقيق : د. شوقي ضيف ، ط2 ، دار المعارف ، مصر ، 1964 م .
- مواقف في الأدب والنقد ، د. عبد الجبار المطلبي ، دار الرشيد للنشر ـ منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية ، 1980م .
- نقد الشعر في المنظور النفسي : د. ريكان إبراهيم ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1989م.
- النكت العصريّة في أخبار الوزارة المصريّة ، نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني (ت569هـ) ، اعتنى بتصحيحه : هرتويغ درنبرغ ، ط2، مطبعة مدبولي ، القاهرة ، 1991م
- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي ، محمد بن الحسين بن عبدالله ، محمد بن عبد الله الشبلي ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 2000م .

الرسائل والاطاريح :

- والأنـا والآخـر فـي شـعر الـوزراء فـي العصـر العباسـي (132ـ 447 هـ) : رنـا طـارق عبـيس، جامعة كربلاء كلية التربية للعلوم الإنسانية ، (رسالة ماجستير)، 2017م .
- الأنـا والآخـر فـي أدب الرحلـة ــ دراسـة نقديـة مقارنـة ، مكـي سـعد اللـه ، كليـة اللغـة والأدب العربي/ جامعة باتنة ، 2017م ، (أطروحة دكتوراة) .
- جدليّـة الـذات والآخـر فـي شـعر سـجون العصـرين الأمـوي والعبّاسـي (دراسـة نفسـيّة) ، رائـد حميـد البطاط ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، 2011م ، (أطروحة دكتوراة) .

البحوث والدوريات :

- الأنا في شعر الشريف العقيلي ، شيماء نجم عبد الله ، جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات ـ مجلة الأستاذ، العدد : 210، مجلد :1، 2014 م (بحث) .
- الاخوانيـات فـي شـعر الشـريف العقيلـي (القـرن الرابـع ــ الخـامس الهجـري) : عـامر إبـراهيم حسـاوي النعيمـي ، جامعـة الموصـل ، مجلـة أبحـاث كليـة التربيـة الأساسـية ، مجلـد : 3 ، العـدد : 3 ، (بحث) .
- الـذات المفتخـرة فـي جمهـرة أشـعار العـرب : فاطمـة محمـد أحمـد ، كليـة التربيـة الأساسـية / جامعة الكوفة ، العدد :52 ، 2019م ، (بحث) .

- الشاعر الحسن المهذب وشعره جمع ودراسة : صفاء حسين لفته ، حازم علاوي عبيد ، مجلة الباحث : العدد : 26 ، 2018م ، (بحث) .
- الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية : د. يوسف خليف ، المجلة ، العدد 23 ، 1958 ، 115 ، (بحث) .